حبّة البندق

سعود الأسدي*

قالت النورية عليا، وهي تقرأ الكفّ تحت الزنزلختة في ساحة دارنا، لجارتنا أمّ حسين: «شوفي يا خيتا يمّ حسين، صحيح إحْنا النَّوَرْ شحّادين، والناس بقولوا عنّا إنّا لا ذمة ولا دينْ، لكنْ مِينْ مثلنا بعرَفْ يضرب الودع، ويعمل البِدَع، ويقرأ الكفّ، وينقر عالدفّ، ويفتح بالفنجان، ويسْحر الزلام والنسوان، ويداوي الحَبَل، ويعالج الحَوَل.. »

وكمَنْ لدغتها أفعى سَحَبتْ أمُّ حسين كفَّها من يد النورية وقالت: «أَجَتْ وألله جابها، بالله عليكي يا عليا تعيدي شو قلتي!»

أعادت النورية ما قالته، وزادت أمورًا لا تَخْطر ببال. ولكنّ أُم حسين لم تهتمّ بما سمعتْ إلاّ بعبارة «يعالج الحَوَل،» فعَدَّلتْ جلستَها، وأَقبلتْ على النورية بكلّ جوارحها وقالت. «صحيح إنكو بتعالجوا الحَوَل؟!» فأجابت النورية بكلّ ثقة: «نعم يا ستّي، مِنْعالج الحَوَل.» فقرّبتْ أم حسين رأسها من النورية أكثر، كَمَنْ تريد أن تطّلع على سرّ عميق، وقالت: «دَخْلِك، كيف، وبيش؟» فأغمضت النورية عينيها المكحّلتيْن، وأخذت تنوس برأسها ذاتَ الشمال وذاتَ اليمين، وقالت: «عليكي نور، يمّ حسين أنا بعالج الحَوَل بأبسط دوا. بحبّة بندق.»

ـ بحبّة بندق؟!

ـ أيْ نعم، يا ستّي، بحبّة بندق بِعْمِل العَجَب.

❖ ❖ ❖

كان زقاق قريتنا الضيّق يكتظّ قبيْل الغروب بأبقار القرية العائدة من المرعى، يسوقها راعي العجال، ويَنْهرها بصوتٍ أجشّ شاتمًا البقرَ وأصحابَه.

وبيت عمّي «أبو الشيخان» الطيني الواقع وسط الحارة ملتقى ثلاثة دروب، وشبّاكُه مفتوحٌ دائمًا، ويفضي إلى طريق صخريةٍ صَقَلَها الدوْسُ عليها بالأقدام، وتدفُّقُ مياهِ الأمطار خلال العصور والأجيال.

لأبي الشيخان بناتٌ عشر، ولا أولاد ذكورًا له. وصياحُ بناته، ومنازعاتُهنّ، وأغانيهنّ، تتداخل وتملأ فضاءَ بيته والزقاق المجاور

بنت أبو الشيخان فاطمة حولاء، وحَوَلُها بارزٌ جدًا. والناس في قريتنا لا يبالون بلَصْقِ العيب أو التشويهِ بصاحبه، فكانوا يقولون: «وينِكْ يا حولا؟» و«شو بتعملي يا حولا؟» و«أجت الحولا» و«راحت الحولا.»

قالت الجارة أم حسين ببشاشة، وهي جالسة على عتبة بيت جارتها أمّ الشيخان تُرَقّع ثوبَ ابنها الوحيد حسين، وتخيط عراويه وأزرارَه المقطّعة: «بشارة عندك يا جارتنا. دوا حَوَل بنتك فاطمة عندي.»

قالت أم فاطمة بسخرية: «وشو هالدّوا اللي عندك يمّ حسين، يا دكتوره؟!»

قالت أم حسين بجديّة: «أي نعم دكتوره. والدوا أبسط من بسيط. هاتيلِكْ حبّة بندق!»

ـ حبّة بندق؟! ومنين أجيبلك حبّة بندق يا خايسة؟! ولاّ شايفتيني يا بندوقة كلّ يوم بتنقّل بندق وفزدق؟!

ـ فشّ حدا منكو رايح عَالمدينة؟ روحوا عالمدينة! وهاتوا حبّة بندق!

قالت أم حسين غيرَ آبهة، وقطعتْ خيطَ إبرتها بأسنانٍ تُشْبه أسنانَ الثوم المعطوبة.

أمّا أنا، ذلك الصبيّ الصغير، فلم أكن أعرف للبندق شكلاً أو صورة، ولا أظنّ أحدًا من أترابي كان قد رأى حبّةَ بندق عند أهله أو عند جيرانهم. ولكنْ قيل أمامي مرّةً إنّ العبد أسعد، وهو جارنا الحيط بالحيط، لديه بندقية مخبّأة في معصرة دار صنع الله منذ ثورة ٣٦، فظننتُ لأوّل وهلة أنّ البندق هذا شيء خاصٌّ بالبندقية، ولعلّه رصاصُها.

* ـ قاصّ وشاعرٌ بالفصحى والمحكية الفلسطينية

مضت أسابيع، ولمّا عَلِمَ أطفالُ حارتنا أنّ حبّة البندق جُلبتْ من المدينة تحرجموا مثلَ سخول هزيلة على باب بيت أمّ الشيخان ليروْا معجزةَ شفاء فاطمة بنت أبو الشيخان من الحَوَل بحبّة بندق على يد الجارة أمّ حسين.

وبعد انتظار ساعة أو أكثر حضرتْ أمّ حسين وهي تنوء بوركيْن كقِرْبتيْن منفوختيْن، وتَنْفض ساعديْن مشمّرين كمخباطيْ نخل من رغوة صابون الغسيل، فتطير الرغوة رذاذًا كتطايُرِ الفَراش الصغير عن سدّة الشعير.

ـ هاتي يمّ الشيخان مسلّة! يلاّ قومي، حاجي باركِه

وانتظر الجميع، حتى رفوفُ عصافير الدوري وحَمامُ السطوح، متلهّفين لرؤية العجيبة التي ستأتي بها أمُّ حسين.

ثقبتْ أمّ حسين حبّة البندق بالمسلّة بعد أن حَمَّتْها بنار الموقدة إلى درجة الاحمرار، ففاح شعيطُها كشعيط بَعْرةِ تيسٍ ماعزٍ اكتوت بجمرة من مرمعون الطابون. ونفختْ على الحبّة نفختيْن، وشكّتها بخيطٍ مصّيصٍ متين. وبعد أن تمتمتْ عليها عدّة آيات، وانتخت بجدّها الأسد أبو السباع، علّقتْها بخصلة من غرّة فاطمة من جهة اليمين بمستوى بؤبؤ الحولاء، ودَعَتْ بصوتٍ مسموع «يا شافي يا معافي!» وتركت الحبّة تنوس كرقّاصِ ساعةٍ أمام عين فاطمة، والكلّ على غير عادة في صمت ودهشة ووجوم، ثمّ قالت:

ـ شوفي يا فاطمة يا بنتي. ظلّي انظري عَ الحبّه بذنبة عينك، وخلّي عينك دايمًا تتحرك معها عَالجنبين! شهر شهرين زمان، عينك بتصحّ وبتصير بإِزِنْ ألله العادِه وزيادِه.

قلبتْ أم حسين شفتيْن غليظتيْن كأصابع زينب. وكمن تُغربل الحَبّ حرّكتْ يديْها عدّة مرّات وقالت: «عيش كتير بتشوف كتير. مَ المجانين ولادْ ناس. منعيش ومنشوف تنعوف.» وأخذتْ تَطْرد الأولاد «يلاّ يا أولاد، خلص عاد. حِلّوا! حاجي مثل اللي متحرجمين عَ طبيخ عرس.»

❖ ❖ ❖

لم أكن أعرف، ولا أحد من الجمع يَعْرف، سرَّ حبّة البندق ودورَها في الشفاء. ولكنّ أمّ حسين علّقتْها بغرّة فاطمة بمستوى عينها الحولاء وقالت «يا شافي يا معي،» وتركتها تنوس.

في كلّ مرة كنّا نحن الأولادَ نلتقي في الحارة أو على البيادر لنلعب الغُمّيضة، كنتُ أغافل فاطمة عندما يأتي دورُها وتُغْمض عينيها لنختبئ، فآتيها من جهة عينها اليمنى، فألس حبّةَ البندوق بأطراف أصابعي لمسًا ناعمًا، وأتحسّسها بدفء لأعرف سرّها. كانت فاطمة تَشْعر بلمستي أحيانًا فتضربني على يدي بشدّة، وتدعو عليّ: «كسّار يكسرْ إيدك!» وتعدو خلفي كذئبة شرسة، وأعدو أمامها كأرنب جبان

كم تمنّيتُ في لحظات شرودي لو أنّني أختلسُ حبّةَ البندق تلك من غرّة فاطمة كما يَخْتلس نقّارُ الخشب حبّةَ اللوز الفَرْك من لوزة عمّي أحمد عبّاس المحاذية لجدار المسجد، ويطير بها، ويَكْسرها بمنقاره الحادّ تمنّيتُ ذلك ألف مرّة، حتى رأيتُني قد صرتُ ذلك النقّار الخشب فطرتُ بجناحيْن قويّيْن، وهويتُ من أعلى، واختلستُ حبّة البندق المعلّقة بغرّة فاطمة. ويا لَفرحي وأنا أطير بها بعيدًا، وأحلّق عاليًا، وفاطمة تَزْعق وتصرخ: «جاي يا غُلمان جاي.» ولمّا تواريتُ عن عينيها هبّت عليّ فجأةً ريحٌ شديدةٌ لوت جناحيّ فلم أستطع مغالبتها، وساقتني إلى جهة فاطمة، فهبطتُ كما يهبط الطيّارُ قسرًا. وقبل أن تصل فاطمة إليّ وأنا مسجّى على الأرض، فتأخذَني وحبّتي غنيمةً باردةً، قبضتُ بيدي على حجر، وكسرتُ الحبّة برفق، فوجدتُها حبّةً.. فارغة!

الناصرة